

الجسد وجدلية الجمال والقبح ميشال فوكو أنموذجا

أومعوش مقدودة : طالبة دكتوراه / جامعة أبو القاسم سعد الله/ الجزائر2
إشراف: د. جميلة حنيفي، الجزائر. جامعة أبو القاسم سعد الله/ الجزائر2،
مخبر: الدراسات الفلسفية والأكسيولوجية

ملخص:

يحتل الجسد مكانة رئيسية في فكر الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو Michel Foucault ويرى أن الجسد ومنذ قرون طويلة، عايش صراع بين الواقع واليوتوبيا فاختلقت الحضارات المتعاقبة عبر التاريخ، في طريقة تصور الجسد الجميل والمثالي، فتارة تلبسه أقنعة من ذهب (الحضارة البابلية)، وأحيانا أخرى ترسم له لوحات وتشيد له تماثيل (الحضارة اليونانية)، أما في عصرنا الحالي، فلقد ظهرت أشكال متطورة من اليوتوبيا، متمثلة في الدعاية التي تسعى لإظهار النموذج الجمالي المثالي للجسد. والذي يستعمل مختلف أدوات التجميل. بما في ذلك الجراحة التجميلية، إن اقتضى الأمر ذلك. لكن رغم اختلاف اليوتوبيات في طريقة تصور الجسد، إلا أنّ هدفها واحد، وهو بلوغ الكمال الذي من شأنه أن يُشعر الذات بالاعتزاز داخل جسدها. فتحاول يائسة تقليد وبلوغ اليوتوبيا، وأحيانا تثور الذات ضدها وتتقبل جسدها، والذي يحتل - عند فوكو- نفس موقع الشمس التي تستمد منها كل الكواكب الضوء.

الكلمات المفتاحية: الجسد، اليوتوبيا، المكان، أماكن أخرى، الجسد اليوتوبي.

1. مقدمة:

من الطبيعي أن تتميز الفلسفة المعاصرة بكثافة وتشعب مساءلاتها، وتعدد فتوحاتها المعرفية والنقدية، نظرا للتحويلات التي طرأت على مستوى الفهم والتأويل، والتي شكّلت منعطفات فكرية حاسمة، ولاسيما عند تناول المنسي والمغفل والمقفل، والخوض في المواضيع المهملة ضمن النصوص التاريخية، وإبداع المناهج الجديدة من بنيوية وتفكيكية؛ كيف لا تتميز هذه الفترة وقد سطع فيها الفيلسوف المجدّد ميشال فوكو، Michel Foucault (1926-1984)، الذي يصعب تصنيفه، ذلك لأنه الفيلسوف الذي يرفض أن يُصنّف أو يُحسّر ضمن أي اتجاه معين. ومع ذلك يكتشف الباحث في مؤلفاته أنه فيلسوف ثوري بامتياز، من خلال طبيعة المواضيع التي فكّر فيها، مثل الجنون والجسد ونقد النص التاريخي.. وكذا في التنوع المنهجي من خلال اعتماده الجنيولوجيا والأركيولوجيا، ومن أهم أطروحاته أنّه نبّه إلى خطأ ارتكبه معظم الفلاسفة وهو عدم الاهتمام بالتاريخ، فلا يمكن تفحص الأفكار دون العودة إلى الأرشيف. فلكي نعرف حقيقة الجنون لا بد من العودة إلى أرشيف التعامل مع المجنون عبر التاريخ، واستنطاق المستشفيات ودور الحجز. وهذا ما نجده في مؤلفه تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي 1961، ولمعرفة حقيقة العلوم لا بدّ من العودة إلى تاريخ ظهورها وتطورها حفريات المعرفة 1969، ولدراسة الجسد والجنس لا بد من العودة كذلك إلى التاريخ؛ تاريخ الجنسانية بأجزائه الأربعة. إن التفكير مع فوكو ممتع ولكنه شاق، كون اهتمامه بالتاريخ لا يعنى أنه يرتّب الأحداث، بل كثيرا ما يقفز من واقعة أو حقبة تاريخية إلى حقبة أخرى متباعدة ومختلفة، غير أنّ اختلاف منهجه والمواضيع التي تطرّق إليها، تجعلنا نستمر في الرحلة الفكرية. تطلق كثير من الدراسات على فوكو أنه فيلسوف السلطة، إذ أنه غيّر تماما من المفهوم التقليدي المعارف عليه، ورفض النظريات الحديثة حول التعاقد بين الأفراد والسلطة، كما غيّر أيضا في الأماكن التي يجب دراسة السلطة فيها، ذلك لأنها ليست أفقية وموجودة فقط في كرسي الرئاسة أو قاعات البرلمان والمجالس الحكومية، بل السلطة عمودية موجودة ومنتشرة في كل الأماكن، في المستشفيات والمدارس والثكنات، فهي مجبرية وأخطبوطية، وفي خضمّ هذا لا يمكن إنكار أن السلطة أخذت حصة الأسد ضمن فكر فوكو، لكن المتأمل معه يجد أنها تتقاطع وتتنازع مع الجسد ما يجعلنا نتيقن أننا نتعامل مع فيلسوف الجسد بامتياز، ومؤسس سوسيولوجيا الجسد، كون كل خطابات المعرفة وخطابات السلطة، تتجه نحو الجسد محاولة تشكيله وتصنيعه بالصورة التي تراها مثالية وخادمة لمصالحها، لهذا لا بد من الاستعانة بفوكو للعودة إلى أرشيف الجسد. وهذا ما يستدعي طرح الإشكال التالي: ما علاقة الجسد باليوتوبيا في فلسفة فوكو؟ وما حقيقة اهتمام كل الحضارات بالجسد المثالي؟

وتحت هذا الإشكال، عالجت مجموعة من المشكلات الجزئية جاءت كالتالي: ما هي الإضافة التي قدمها فوكو حول اليوتوبيا؟ وهل جدّد وكشف عن نوع جديد من اليوتوبيا؟ كيف استثمر

الخطاب عبر العصور في الجسد؟ أي الأماكن يسكنها هذا الأخير؟ ماذا يقصد فوكو بالمكان واللامكان وأماكن أخرى؟

ننتقل من فرضية كون الجسد مركزي ويحتل المكان الأوسع في الخريطة الفكرية لفوكو، بل ولطالما كان مركز التفكير على مر العصور ولهذا صيغت له عدة يطوبيات كما أن الجسد لطالما عايش نوع من الاغتراب بين المكان الفعلي واللامكان، ما جعل فوكو يكشف عن واقع جديد للجسد داخل كل الحضارات، ويظهر الاختلاف بين الجسد واليوتوبيا. كما نعتقد أن فوكو أضاف تصور جديد لليوتوبيا مختلفة عن تصور الفلاسفة قبله، بل كشف عن أماكن أخرى خصبة لم يُفكّر فيها من قبل. يهدف البحث إلى محاولة اكتشاف حقيقة الجسد، ومكانته في الحضارات والفكر عموما وفيما إذا كان خاضع للأفكار التي تنتج من اجله، ومدى فاعليته في التاريخ. وقد اعتمدنا في بحثنا على المنهج التحليلي، بكونه يناسب عملية تتبع أفكار فوكو ضمن نصوصه ومؤلفاته.

2. الفلسفة واليوتوبيا:

ارتبطت الكثير من الأعمال الفلسفية، بمصطلح اليوتوبيا أو حملت اسم اليوتوبيات، وهي مختلف التصورات التي تتعالى عن العالم الواقعي، وتتصور عالم مثالي يختلف عن العالم الحقيقي، المليء بالسلبيات والشوائب وخير مثال على ذلك جمهورية أفلاطون Platon مدينة الله للقدّيس أوغسطين Saint-Augustin و المدينة الفاضلة للفارابي. وكلها مشاريع فكرية تتأمل نحو عالم آخر أفضل للإنسان، أي تتأمل نحو أماكن غير موجودة في الواقع أماكن تتحقق فيها المشاريع الفلسفية، والتي تعتقد بإمكان وجود أنظمة سياسية عادلة بشكل مطلق، تتجسد فيها القيم الأخلاقية العالية، هذه اليوتوبيا التي تتصور أماكن غير موجودة في أي مكان. أماكن لا تحتل أي مساحة لظلم والتعسف، فكر فوكو متجدد ومختلف يجعلنا نتصور أماكن، غير التي تصورها هؤلاء الفلاسفة، فيفتح بذلك مجالا جديدا للبحث، إذ يربط مصطلح اليوتوبيا بالجسد على الرغم من كونه مادي وملموس ويشغل حيزا من المكان الفيزيائي، ويجب التنبيه إلى أن الجسد يُطلق فقط على "جسم الإنسان ولا يُقال لغيره من الأجسام المغذية"¹، ويتميز هذا الجسد بتمثله المادي، بالتالي فهو قابل للإدراك الحسي، كما تدل حروفه باللغة الفرنسية، بكونه جزء مادي قابل للمس أي شيء ملموس Corp. هو "كل غرض مادي يكونه الإدراك أي كل مجموعة كيفيات تمثلها مستقرة ومستقلة عنا وواقعة في المكان"².

إذن الجسد هو ذلك الجانب المادي، الذي يشغل مكان ما، بينما اليوتوبيا لا مكان لها إذ لا تسكن مكان حقيقي؛ بمعنى مكان تتموقع فيه، لذلك تتخيل أماكن أخرى مخالفة للمكان الثابت.

¹ - ابن منظور، لسان العرب، ج4، دارصادر، بيروت، ط3، 2008، ص92.

² - أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل، المجلد الأول، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 2001، ص231.

فتحيك حكايات تسكن فقط اللامكان، ولا وجود لها في المكان الحقيقي المحدد. فتسرد حكايات كما " أنها تطلق الأساطير"،¹ كما تستعين اليوتوبيا بمجموعة من الأدوات مثل الكلمات، النحو، البلاغة، لتتمكن من صياغة وتأليف نصوص حول اللا مكان، هنا يظهر انتماء فوكو للبنوية، رغم رفضه أن يصنف ضمن أي خانة فكرية كونه يعود إلى النصوص التاريخية، ويعود كذلك إلى المؤلفات الأدبية والفلسفية، ويستحضر الأساطير" فإن اليوتوبيا والأماكن الأخرى تعين أساسا طرائق متميزة في الارتباط بتجربة اللغة، سواء كانت هذه على شكل نظام الخطاب أو اعتراض عليه على شكل المكان الآخر الأدبي"² فكيف لليوتوبيا التي لا ترتبط لا بزمان ولا بالمكان أن ترتبط بما هو ملموس؟ أي الجسد الذي يشغل دائما مكان ما و"الإهتمام بالجسد هو اهتمام بالمكان وبالزمان".³

يظهر الاختلاف التام بين مجال اليوتوبيا التي تبحث فيما يجب أن يكون، وتتأمل في المثل، في الكمال، في الأجمل. بينما الاهتمام بمجال الجسد هو بحث في العلاقات كما هي في المكان والزمان أي دراسته ضمن الفضاء الاجتماعي، السياسي والاقتصادي، هذه الأماكن الواقعية، هي التي تجعلنا نقف أمام اليوتوبيا الحقيقية، ففي مؤلف فوكو المعنون *le corps utopique, hétérotopie*، يجمع بين هذين المصطلحين المتناقضين، ويجعل الجسد هو أرشيف كل اليوتوبيات، إذ تتقاطع فيه كل النظريات السياسية والأخلاقية والاقتصادية. حيث كشف فوكو أن الجسد يمثل عددا فارقا في المعادلة السياسية والاقتصادية، وذلك يتجلى عن طريق دراسة المؤسسات النظامية، دراسة مجهرية، تكشف عن مدى محاولتها تهذيب قوى الجسد والسيطرة عليها.

1.2 صراع الجسد واليوتوبيا عبر الحضارات

تنكشف العلاقة بين اليوتوبيا والجسد من خلال اهتمام كل الحضارات بالجمال، قوته وقديسيته، وهذا ما يفسر اختلاف معايير الجمال والقبح من مجتمع إلى آخر، فلقد اجتهدت كل اليوتوبيات باختلاف المجتمعات والثقافات عبر التاريخ، في وضع صورة وتحديد مثال للجسد " الرشيق الجميل الهيئة دائما".⁴ إذ حملت كل هذه التماثيل والأساطير، خطابا مشفرا لما يجب أن يكون عليه الجسد، فمن الناحية الجمالية كانت تتصور جسد خال تماما من العيوب والشوائب، بل وتجتمع فيه كل المحاسن، أما من الناحية الأخلاقية كانت تتأمل في جسد نقي طاهر وقريب من الصفات الإلهية أي خال من الذنوب والخطايا والآثام التي هي من صفات الشيطان، والتي تدنس طهارته. لكن هذا الخطاب لم يكن عفويا، بل كان له هدف وهو جعل الأجساد طيبة، محترمة للقوانين وخاضعة للعرف الأخلاقي، أما من الناحية الاقتصادية كان الهدف هو استثمار قوى الجسد وجعلها منتجة عاملة. فما يميز الجسد اليوتوبي هو النشاط والعمل دون تدمير ولا تعب، هذا ما يفسر لنا أن اليوتوبيا لم توضع

¹ - ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، تر: مطاع صفدي وآخرون، مركز الإنماء القومي، بيروت 1990، ص10.

² - ميشال فوكو، الجسد الطوباوي: أماكن أخرى، تر: محمد العربي، مدونة جورج باتاي، ص12

³ - Michel Foucault, les mots et les choses. Paris, Gallimard, 1966, p289.

⁴ - Michel Foucault, le corps utopique, les hétérotopie, éd Ligne, paris, 2009, p10

إلا لغرض التحكم في الجسد الذي هو في ذات الوقت منشأها، أي الجسد هو مصدر وهدف كل اليوتوبيات عبر التاريخ. ونظرا لهذه المفارقة بين الجسد كما هو موجود في الواقع، وهذا الجسد الذي يتصوره الخطاب، تنشأ علاقة صراع، أحيانا يخضع لها الجسد خضوعا تاما، محاولا أن يكون بغير شكله الواقعي، وأحيانا أخرى يثور الجسد وينفعل ضد هذا النوع من الخطاب ويحاول أن يفرض وجوده كما هو فعليا، كونه مكان ثابت لا يمكننا الهروب منه، أو التحرك من غيره وهنا يفرض وجوده "جسدي عكس اليوتوبيات، أنه المكان الذي أسكن فيه، أنه المحل المطلق، إنه المكان الذي أتحد معه".¹ إن عملية البحث عن هذا الجسد المثالي، غير الموجود في أي مكان هي عملية فاشلة لذلك نحن مجبرون على تقبل جسدنا الفعلي والملموس، الذي نسكنه ونتحد معه، رغم ما فيه من عيوب وشوائب ونقائص، التي نلاحظها فيه، أو رغم هذه المقارنة بين هذا الجسد الذي نملكه ويملكنا، وبين هذا الجسد الذي لا جسد له، والذي تصوره لنا اليوتوبيا "فحين أنظر إلى جسدي في المرأة أراه قبيحا مشوها غير جميل مع ذلك أنا مجبر على الظهور به، أمام أعين الآخرين رغم ما فيه من قبح وبشاعة".² ومن أقدم الصراعات التي دارت حول موضوع الجسد، الجدل والنزاع بين الجميل والقبيح، وهو صراع راهن كذلك أي لم ولن ينتهي. فرفض وعدم قبول الصورة التي عليها جسدنا، الحالي نظرا لما نلاحظه من نقائص وعيوب فيه، فنزاع إلى رفض هذا المكان البشع، لتخيل ورسم مختلف الصور والأعمال الفنية، الفائقة الجمال، وحبك حكايات وأساطير عن أجساد خارقة وفائقة الجمال والروعة. فكل حضارة لها نصيبها من التصور الجمالي للجسد، مثلا في الحضارة البابلية أبدع البابليين في طرق العناية بالجسد وصحته. وصناعة أجسام المحبين وإعدادهم لينافسوا الآلهة، فلا يمكن بلوغ الخلود والمجد بأجساد هزيلة ومريضة، بل من خلال صناعة الأجسام القوية، الصلبة والجميلة، يتحقق لنا "بلوغ مجد الآلهة"³ على ماثلة الحضارة البابلية اهتم اليونان بالرياضة وبالألعاب الأولمبية، لغرض البحث عن هذا الجسد الصلب القوي، الذي يستطيع تحمل ما تتحمله الآلهة، فينال الخلود المستحق كونه شأنه شأن الآلهة مقدس وكامل. أما الحضارة الفرعونية، فقد أبدع الفراعنة في مجال الكيمياء لغاية التحنيط والحفاظ على هذا الجسد المقدس، الذي لا يجب أن يفنى أو يفسد ويزول. ذلك لأنه من المستحيل أن تخلد الروح إن لم يكن لها منزل تسكنه، إذ يتمثل هذا المسكن في المومياء. فخلود الروح عند الفراعنة، مرهون بخلود الجسد، هذا ما يفسر إبداعات التحنيط في هذه الفترة، والاهتمام الشديد بطريقة دفن أجساد الملوك والأمراء مع مجوهراتهم وأدواتهم، داخل قبور مشيدة بطريقة فائقة الدقة تليق بهذه الأجساد، وهذا يرجع لإيمانهم المطلق أن هؤلاء الملوك والأمراء خالدين، وأنهم سيعودون للحياة من جديد. لهذا لم يعبثوا أبدا في اختيار الأماكن التي تحصن المومياء، فتعمدوا

¹ - Ibid. p 09

² - Ibid. p11

⁹ - حسن محمد سليمان، تيارات الفلسفة الشرقية، منشورات علاء، دمشق، ط1، 2008، ص 113.

اختيار " المكان ألامن، والدقة في تكفينها ودفنها، ولعل مومياء الملكة نفرتيتي Néfertiti ليزال خير رمز".¹ ومثال تاريخي. حاضر يظهر هذا الاهتمام الكبير بالجسد ذو الجمال الأزلي، الذي يحتضن الروح، وأي تشوّه للجسد هو تشوّه للروح، وفنائها يعني فناء تشرد الروح وضياعها " فحين يتلاشى الجسد... فإن الروح تبقى هائمة وتصبح في حيرة ومعاناة".²

إنّ مسألة اهتمام الحضارات السابقة بالجسد لم تقتصر على الفراعنة فقط، وليسوا وحدهم من انشغلوا بمسألة خلود الجسد؛ إذ اهتمّ البابليون واليونانيون الذين اشتهروا بصناعة الكثير من التماثيل، التي تشهد على هذا الاهتمام والتي تمثل موروث فني جمالي عالمي، مثلا تلك التماثيل الموجودة في اليونان والتي تجمع بين جسم حيوان كجسم الأسد مثلا ورأس الإنسان. وهذا المزج له دلالة وهو الجمع بين القوة التي ينفرد بها الأسد وهي قوة خارقة، وبين الحكمة والمنطق التي ينفرد بها الكائن العاقل. وهذا المزج يعود كذلك إلى خصوصية الحضارة الإغريقية السابقة التي ابتدعت الفلسفة والمنطق، كما أنها لم تهمل الاهتمام بالجسد، إلى درجة أن اشتهر اليونان بالرياضة التي تهدف إلى بناء الأجسام الأنيقة والجميلة والقوية، وقد ابتكروا أنواع متعددة من الرياضة مثل المصارعة الحرة وسباق المراتون، وهم أول من نظم الألعاب الاولمبية.

ومن هذا يتضح لدينا أن كل اليوتوبيات تستلهم وجودها من الجسد وتغذي مخيلتها انطلاقا منه. فالمومياء" على كل حال ما هي؟ أنها يوطوبيا الجسد المنفي والمتغير في هيئته هناك أيضا الأقنعة الذهنية، الميسانية mycénienne التي توضع على جسد الملوك... وحاليا في أيامنا هناك هذه المكعبات البسيطة من الرخام وهذه الأجسام المنحوتة من الحجارة... يصبح جسدي فجأة صلبا كشيء من الأشياء وخالدا كإله".³

2.2 اليوتوبيا في العصر الحديث:

تطور التصور اليوتوبي للجسد، واختلف في العصر الحديث، إذ تخلص من التفكير الأسطوري وتقديس الآلهة، وتجاوز حلم الخلود، ولكن احتفظ بتخيل وتصور جسد لا جسد له. كما احتفظ بزوع إلى صورة الجمال المثالي الذي لا يشيب، ولا يشوّه بالتجاعيد التي ترسمها السنوات التي تمر على الإنسان، فلم يفقد العصر الحديث أمل الصراع مع عجلة الزمن، وتقليل أو محو كل ما يظهر التقدم في العمر. لكن هذا الجسد الذي نأمل بلوغه غير متجسد، أي لا وجود له في العالم القابل للإدراك " اليوتوبيا المكان الذي يقع خارج الأمكنة المكان الذي نحظى فيه بجسد بدون جسد".⁴

¹ - مبرين مهوداد، فلسفة الشرق، تر: محمد علاوي، القاهرة، ط1، 2003، ص36.

² - المرجع نفسه، ص36

³ - ميشال فوكو، الجسد الطوباوي، مرجع سابق، ص 24

⁴ - المصدر نفسه، ص 21

ركز الخطاب الحدائي، على جعل الجسد، مجال خصب للاستثمار، وذلك عن طريق تنمية قدرات معينة رسم صور مثالية، يتميز بها الجسد الطيع. الذي لا يكل ولا يمل عن العمل والإنتاج، لا يزال الجسد يعايش الصراع مع اليوتوبيا الحالية، ولعل هذا الصراع يتضح من خلال محاولة الجسد رفض هذه الساعات الطويلة من العمل. والجهد الشاق، وإهدار القوة في ذات الوقت، وكثيرا ما يستسلم ليوتوبيا الجمال التي تشهر لها الإعلانات، لكي يخفي علامات التعب والوهن الذي تخلفه هذه العجلة المتسعة نحو الربح. فيجد نفسه يكثر من التوجه لاقتناء مختلف المساحيق والمنتجات الجمالية، وأحيانا يستسلم لرغبة التجميل ونحت وصناعة القوام. وهذه الرغبة ليست طبيعية في الإنسان، بل هو نوع جديد من الخطاب، ونمط متطور من اليوتوبيا، التي تضع نفسها كمصدر لتقييم ما هو جميل وما هو بشع، والذي يجب ترميمه وتجميله. وهذا يشكل رغبة لاشعورية لدى الإنسان بصفة عامة والنساء بصفة أخص، فالفضائيات والعوالم الافتراضية تتفنن لتقديم لنا صورا لأجساد فائقة في الجمال، وأجساد أخرى غاية في القبح والبشاعة، وفق غاية موضوع الدعاية، أو ضمن أهداف سياسية وإيديولوجية معينة، بل أكثر من ذلك حتى سوق العمل بات خاضعا لمعيار التجميل والقبح، فمعظم الشركات، والقنوات التلفزيونية والفنادق والمطارات وغيرها، أصبحت تضع شروطا جمالية ضمن أهم اعتبارات التوظيف، مثل القامة والأناقة وحسن المظهر واللباس. هذا ما يفسر الانتعاش والاهتمام بطب التجميل، نظرا لتزايد الإقبال عليه من قبل المشاهير وغيرهم، ويمكن ربط كل ذلك، بنوع من شغف الجسد إلى بلوغ الكمال، والسعي إلى القبول الاجتماعي، بعد تحقيق الصورة القريبة أو الشبيهة للجسد اليوتوبي، فننال المدح ووصف جسدنا جسد "وسيم، نقي شفاف ودائم النشاط".¹ فكل ما يستخدم الإنسان من أشياء تجميلية، يريد من خلالها الهروب من المكان الحقيقي الذي يسكنه، إلى أماكن أخرى موجودة فقط في تصوره عن المثل. "فالقناع والوشم و مسحوق التجميل، يضعون الجسد في فضاء آخر إنهم يجعلونه يدخل في مكان ليس هو المكان المعروف في العالم إنهم يجعلون من هذا الجسد قطعة من فضاء خيالي سيدخل في تواصل مع الألوهية... فالقناع والوشم ومساحيق التجميل عمليات يتم من خلالها خلع الجسد من فضائه الخاص وقذفه في فضاءات أخرى".²

ذلك لأن ثمة اختلاف بين الجسد واليوتوبيا، والصراع مستمر بينهما، رغم أن أصل ومنشأ اليوتوبيا باختلافها هو الجسد. "من المهم معرفة كيف يمكن لليوتوبيا أن تولد من الجسد حتى نتمكن من معارضة أو محو ذاتيته الثقيلة وكذلك الكيفية التي تمكن الجسد نفسه من أن يشكل بؤرة طوباوية".³

¹ - Michel Foucault, le corps utopique, les hétérotopie, p17

² - ميشال فوكو، الجسد الطوباوي، مرجع سابق، ص 27

³ - المصدر نفسه، ص 17.

إن هذا المؤلف الجسد اليوتوبي أماكن أخرى، هو في الواقع عبارة عن محاضرة أولى معنونة بـ: الجسد اليوتوبي، وهي توضّح علاقة الجسد باليوتوبيا في عصرنا وفي مختلف الحضارات، والتي يمكن أن نستنتج كما أسلفنا؛ نوع من حالة الصراع المستديم بينهما فالجسد بالنسبة لفوكو ليس دائم الخضوع لليوتوبيا، وليس له أي فعل داخل تاريخه الخاص بل أحيانا يكون مناضلا، كونه يمتلك طاقة ثورية تظهر من خلال تصالح الذات مع ذاتها وتقبلها لجسدها الفعلي، والمختلف تماما عن الجسد الذي تتصوره اليوتوبيا. وهذه الإرادة نلاحظها في عالمنا الواقعي، إذ هناك أفراد متصالحين مع أنفسهم، يظهرون بشكلهم ويفرضون أسلوبهم المختلف عن النمط والصور الجمالية التي تروج لها اليوتوبيا، وهنا يظهر أن الذات يمكن أن تضع على عاتقها فرصة بأن تجعل لذاتها تموضع ومكان خاص في مجتمع تغلب فيه أفكار طوباوية " فمشكلتي هي أن أضع ذاتي faire moi-même".¹ على الذات أن تناضل من أجل أن تفرض مكانها، وعليها أن تناشد الآخرين على تقبل ذواتهم وعدم الخضوع للخطاب المثالي وما يحمله من تصور عن الجسد الجميل. يجب على الجسد الذي تذوق مختلف أشكال الإكراه، ومورست عليه مختلف أنواع الضغوط والإحراج من اليوتوبيات، التي تفرض عليه لبس الأقنعة وتجميل ما ترفضه وما تقرّر أنه بشع وغير جميل؛ أن يثور ضدها ولا يستسلم لخطاباتها المزيفة.

3.2 المكان؛ اللامكان وأماكن أخرى:

أما المحاضرة الإذاعية الثانية، فإنها تضعنا أمام ثلاث مصطلحات لا بد من فك شفرتها، وهي المكان، اللامكان، وأماكن أخرى les hétérotopie. فنحن أمام مسألة لغوية من جهة، ومشكلة فلسفية من جهة أخرى، فهي كلمات تتشابه من حيث تتابع الحروف، لكن تختلف من حيث المعنى، كما أنه لا بد من الكشف عن علاقة المكان اللامكان وأماكن أخرى باليوتوبيا.

يحتل الجسد موقع رئيسي، ومهم من خريطة فوكو الفكرية، وتظهر هذه الأهمية في جعل الجسد هو المكان الفعلي والمحوري، وكل الأماكن الأخرى الممكنة وغير الممكنة تنبثق منه، بمعنى لا وجود لليوتوبيا لولا وجود الجسد، فهي تستمد منه تصوراتها، التي يمكن أن تتحقق والتي قد لا تتحقق أبدا. " جسدي هذا – المكان Topie المشتقة من الكلمة اللاتينية tepos أي المكان عديم الرحمة، فسيطالعي كل صباح، بنفس الحضور، بنفس الجرح وستترسم تحت عيوني الصورة الحتمية التي تفرضها المرأة وجه شاحب، كتفان مقوستان رؤية ضبابية ولا شعرة واحدة في الرأس، حقا ليس جميلا، فداخل هذه القوقعة القبيحة من رأسي داخل هذا القفص الذي لا يروق لي، يتوجب علي أن

¹ - Michel Foucault, entretien avec Duccio Tombato, Contubution, n°4, 1980, paris. p28

أظهر نفسي و أن أتزده وعبر هذه الشبكة علي أن أتكلم وأن انظر، وأعرض نفسي لنظر، جسدي المكان الميثوس منه الذي حكم علي أن أعيش فيه".¹ و مهما يكن عليه الجسد، من انعدام الجمال، عيوب أو تشوهات إلا أننا لا يمكن أن نتحرك بدوننا فهو المكان الوحيد الذي نسكنه فعليا، رغم ما عليه من سلبيات، فنحن لا نستطيع الكلام وممارسة الأشغال اليومية أو السفر ورؤية أماكن أخرى دونه. فنحن نتحد معه ونحقق وجودنا من خلاله.

يحتل الجسد في فكر فوكو، نفس موقع الشمس ضمن المجموعة الشمسية" الجسد كمدينة الشمس لا موضع له، لكن منه تشع كل الأماكن الحقيقية منها والخيالية كذلك".² فمن داخل هذا الجسد غير الجميل والمليء بالعيوب والتشوهات، والذي تكسوه علامات التعب والإرهاق، يبدأ العقل في استعمال عدة أدوات كالنحو، البلاغة، الأدب ويبدع ويتخيل صور مدن غير موجودة في أي مكان، لا خريطة لها ولا حدود جغرافية ولا سبيل أو طريق لسفر إليها ، أماكن رائعة لكن موجودة فقط في الشعور وفي مخيلة الأدباء و تصورات الفلاسفة ، وهذا ما يسمى باليوتوبيا. والتي ترجع إلى أصل ومصدر واحد هو الجسد.

تمكننا من فك شفرة مصطلح المكان، وهو الجسد الواقعي الملموس، الذي يشغل فعلا حيزا من المحيط الفيزيائي، واللامكان، هي تلك اليوتوبيات التي تستمد وجودها من المكان وتبني تصورات عن أماكن لا وجود لها في الخرائط ولا مساحة لها على الأرض فهي موجودة فقط في اللامكان أي في الصور التي يرسمها الذهن. ولكن يبقى لدينا مصطلح أماكن أخرى ، فماذا يميزها عن اللامكان؟ الأماكن الأخرى مختلفة عن اللامكان، فرغم أنها لا تتموقع، ولا تشغل حيز مكاني محدد وثابت، إلا أنها تتميز بكونها تترك أثر وجودها، وهنا فوكو يقدم لنا أمثلة، كالقطار الذي يسمح لنا بالسفر والتنقل من كان لأخر، من مدينة إلى أخرى ونغير فكرة بأخرى وحلم بحلم آخر. فهذه الأماكن الأخرى تترك فينا انطباعات، بل وتنحت داخلنا أفكار تجارب وهذا ما يميزها، وهي الآثار التي تتركها فينا، ولقد اعتمد فوكو سابقا في مؤلفه، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي 1961، على لوحة سفينة الحمقى لجيروم بوش Jérôme Bosch والسفينة كذلك ترمز لهذه الأماكن الأخرى التي تسمح لنا بالعبور. " هذه السفن من الألحان الشائعة، حيث يبحر الطاقم المكون من أبطال ينتمون إلى المخيال ومن نماذج أخلاقية وأنواع اجتماعية في رحلة طويلة رمزية".³

نستنتج أن الأماكن الأخرى، هي التي تسمح لنا بالتنقل وتفتح أمامنا مجال السفر والسير نحو أماكن جديدة، تغير نمط عيشنا، وتنمي قدراتنا الفكرية، كونها تترك في أنفسنا نتائج لتجارب، فهذه الأماكن الأخرى تعتبر مراكز حياة فعلية، لكن دون أن يكون لها مكان ثابت، إنها نوع جديد وشكل

¹ - ميشال فوكو، المرجع السابق، ص 23.

² - Michel Foucault, le corps utopique, les hétérotopie 25

³ - ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، تر: سعيد بن كراد، المركز الثقافي العربي، المغرب، ص 27.

مختلف من اليوتوبيا، ويكمن اختلافها في كونها تلعب دور حقيقي وتحدث تغييرات في الحياة الحقيقية، كالقطار الذي يحمل مجموعة من المسافرين المختلفين من حيث التفكير والأخلاق والتوجه، ما يجعل هذا المكان حافل بالتأثير الاجتماعي، وهذا القطار، سيتوقف في عدة محطات دون أن يستقر في أي منها. ونفس الشيء بالنسبة لسفينة تبحر وتعبّر عدة مدن، مختلفة التاريخ والثقافات "فالسفينة هي قطعة من الفضاء العائم باعتبارها مكان من دون مكان يستمد حياته من ذاته ومنغلقا على ذاته، حربمعى ما ولكنه منذور حتما للانهاية البحر".¹

إذن الأماكن الأخرى تختلف عن المكان لكونها غير ثابتة، لا تتموضع وليست مجبرة على التحجر في مكان ثابت، لهذا فهي تسكن كل الأمكنة، دون أن تبقى في أي مكان، كونها بحد ذاتها أمكنة متحركة أو كما يسميها فوكو أماكن أخرى، وهذه الأخيرة تختلف عن اليوتوبيا التي تستعين بالصخب اللغوي، والخطاب الجمالي والأدبي، الذي يستبشر أماكن تتحقق فيها المثل الأخلاقية والجمالية، وتطبق فيها مبادئ العدل والمساواة.

إنّ الأماكن الأخرى تلعب دورا مهما، وتحدث فارقا في معادلة الحياة الواقعية فهي تتميز عن اليوتوبيا "وإن كان هذا التميز يكتنفه نوع من الالتباس وتحيل اليوتوبيات بالفعل على أماكن دون مكان تقوم بمضاعفة الفضاء الحقيقي للمجتمع في التخيّل، يقصد تحويله إلى فضاء نموذجي وأسطوري. إن الفضاء الاجتماعي الطوباوي تم ربطه على هذا النحو بالفضاء الاجتماعي علاقة تماثل مباشر أو مقلوب".²

إضافة إلى هذه الأمثلة الواقعية المتمثلة في السفينة أو القطار، التي توضح معاني هذه الأماكن غير المستقرة، يقدم لنا فوكو، مثال عن تجربة حياتية وجدانية وهي تجربة حب أفضل موقع، وأحسن علاقة تسمح للإنسان ولجسده أن يتخذ هذا المكان الآخر، كمسكن وينفط من التشتت والضيق "ففي غمرة الحب الجسد يكون ها هنا والآخر المحسوس أي الحبيب، بكل جسده هو الذي يظهر جسدي أمام ذاته الحب الذي، بمعنى ما، يذوتن الجسد بنزع طوباوية".³

اعتبر فوكو، أن علاقة الحب هي نوع من الأماكن الأخرى التي تحدث تغييرا وجوديا على الجسد، والتي تؤثر إيجابيا إذ تخفف من حدة التوتر والصراع بين اللامكان أي اليوتوبيا والجسد. لكن يبقى الملاذ الأخير ليتخلص الجسد من الشعور بالاعتراب، هو التصالح مع الذات وقبول الجسد كما هو، أي تقبل كل النقائص والعيوب. لأن جسدي هو المكان الوحيد الذي "يبطل التوتر بين ألّهنا وألّهناك، إذ يجعل الحقيقي والخيالي يتجاوران ولكن أيضا الأنا والآخر... وفي المقابل أن مجموع هذا التفكير يجد انسجامه العميق في فكرة أنه لا وجود لفضاء معين بدون هذه الفضاءات الأخرى".⁴

¹ -- ميشال فوكو، الجسد الطوباوي، أماكن أخرى، ص 16.

² - المرجع نفسه، ص 13

³ - المرجع نفسه، ص 21.

⁴ - المرجع نفسه، ص 22.

3. خاتمة:

في الأخير يظهر لنا أن التفكير مع فيلسوف الأركيولوجيا فوكو، نوع من السفر لقارة جديدة لم تطأها أقدام، إذ فعلا جدد من حيث المواضيع التي بحث فيها، فبين أن اليوتوبيا لا تعني دائما البحث في السياسية والأخلاق، بل هي كثيرا ما تكون بحثا عن جسد آخر، وقد كشف عن واقع راهن يعايشه الإنسان المعاصر، إذ يسير بخطى عمياء، نحو الجمال، أو نحو تقليد ولباس، قناع يصور لنا أنه قناع جميل، فنعيش توتر داخلي حاد، يبعدنا عن قبول المكان الحقيقي الذي نسكنه، هذا المكان الرئيسي والفعال، والذي يعتبره فوكو أصل كل الخطابات. لا بد من العودة إلى الجسد وقبوله كما هو لغرض استثمار قواه، الفاعلة والتي تغير وتطور نمط الحياة، لا يمكن أن ينتهي شعور الاغتراب دون تقبل الذات لجسدها غير الكامل، والذي عايش الصراع في كل الحاضرات.

أدخلنا فوكو أيضا إلى لعبة لغوية ممتعة، أتاحت لنا الكشف عن العلاقة بين المكان واللامكان، وأن كل الإبداعات الفنية من شعر وأدب ورسم وموسيقى، تستمد وجودها من الجسد وتتجه نحوه في الوقت ذاته، فالفن شأنه شأن اليوتوبيا يتصور أشياء كاملة لا وجود لها في الواقع. من طبيعة الإنسان أن يتأمل ويتصور عالم مختلف عن عالمنا؛ المليء بالظلم والصراعات، والمهدد بالأوبئة والكوارث، لكن تبقى هذه التصورات لا مكان لها على الأرض فنعيش الاغتراب بين ما هو كائن في الواقع وما نسعى إلى أن يكون. ولا يحقق الإنسان كينونته إلا داخل هذه الفضاءات الثلاث التي حددها فوكو، فجسدي فضاء مفروض لا يمكن التواجد خارجه، واللامكان هو نزوع فكري موجود في الإنسان منذ القدم، ويطور نفسه حسب تغيرات العصر، أما الأماكن الأخرى فهي تؤثر وتترك بصمتها وآثارها على وجودنا، بمختلف التجارب الاجتماعية التي تقدمها لنا.

قائمة المراجع:

-المصادر باللغة العربية :

- 1- ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، تر: مطاع صفدي وآخرون، مركز الإنماء القومي، بيروت، د ط، 1990.
- 2- ميشال فوكو، الجسد الطوباوي: أماكن أخرى، تر: محمد العرابي، مدونة جورج باتاي، د ط، د س.
- 3- ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، تر: سعيد بن كراد، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، د ط، د س.

2-المصادر باللغة الفرنسية :

- 1- Michel Foucault ,les mots et les choses. Paris, Gallimard ,1966.
- 2- Michel Foucault, le corps utopique ,les hétérotopie, éd Ligne ,paris,2009.
- 3- Michel Foucault, entretien avec Duccio Tomba toi, Conurbation, n°4, 1980, paris

3- المراجع باللغة العربية

- 1- أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل، المجلد الأول، منشورات عويدات، بيروت باريس، ط2001.
- 2- ابن منظور، لسان العرب، ج4، دار صادر، بيروت ، ط2008، 3.
- 3- حسن محمد سليمان، تيارات الفلسفة الشرقية، منشورات علاء، دمشق، د ط، 2008.
- 4- مهين مهرداد، فلسفة الشرق، تر: محمد علاوي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، د ط، 2003.